ومضات
من هدي النبيّ الخاتم ﷺ

تأليف

د. عبد المجيد البيانوني

الطبعة الخامسة 1427 هـ

مزيدة ومنقّحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

{هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا
﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ..} الفتح .

الحمد لله حـــقّ حمـــده ، والصــلاة والســلام على ســيدنا محمّد خـيرة خلقه وسـيّد جنـده ، ورضي الله عن أصـــحابه وأتباعه وأهل ودّه ، وبعد ؛ فإن من أصول عقيـدة المسـلم أن يعـرف نبيّه

معرفة بيّنة ، تورث محبّته ، وتثمر اتّباعه وطاعته ، وتحصّـــــن دينه وأخلاقه عن أن يكـــون إمّعة تابعا لكــلّ نــاعق ، أو تائهــاً وراء كــلّ منافق .

وإنّ من أخطر ما ابتليت به الأمّة في شـــبابها وفتياتها جهلَهم بســيرة نــبيّهم وشــمائله الزكيّة العطـرة ، حتّى لو قلتَ لأحـدهم : اكتب ما تعرفه عن نبيّك لما تجـــاوز علمه ملء صـــفحة من الـورق ، وربما كـان خطأها أكـثر من صـــــوابها ، وربما جـــــاء

بالمضـــــحكات المبكيــــات من المعلومات المشوّهة ، ثمّ لم يكن مبلغه من العلم ســـوى أســـطر قليلة يعرف أضعاف أضـعافها عن بعض النكرات من فسّـاق عصـره ، أو الكفرة التـائهين في أطـراف الأرض البعيدة ..

فرأيتُ أن أجمع نبذةً مـوجزة من السـيرة الشـريفة ، والشـمائل العطـرة ، تعـرّف شـبابنا وفتياتنا بـــأعظم منّة أســـدتها يد العناية الإلهيّة إليهم : { لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ }
آل عمران .

ولعلّ في هـذه الوَمَضَـات ما يــــــدعو أبناءنا وبناتنا إلى دراسة سيرة المصطفى دراسة مــؤمن محبّ ، حـــــريص على التأسّـــــي والاتّباع .

والله تعالى أسأل أن يجنّبني الزلل ، ويرزقـــــــني الإخلاص في القــول والعمل ، وأن يجعل هــذا العمل خالصـــاً لوجهه الكـــريم ،

وأن ينفع به عبـــــاده ، ويكتب لي أجره ، ويعظم عنـده ذخـره ، إنّـه أكرمُ مسئول ، وهو حســبي ونعم الوكيل .

جدّة في 3/12/ 1414 هـ

وكتبه

د. عبد المجيد البيانوني

يا فتية الإسلام !

أيّها الفتى الناشئ ! أيّتُها الفتاة الناشئة !

ها أنتم هؤلاء اليوم أزهارٌ تفتّحُ في روضة الإسلام العظيمة .. تشرقُ وجوهُكم بفطرة الله ، فتشرقُ الحياة بكم ، وتزدهر ، وتبتسم ..

وتقبلُ قلوبُكم على الحياة ، ملؤُها الأملُ والصفاء ، والطهر والنقاء ..

إنّكم لتأملون من الحياة أن تمنحكم بشراً دائماً ، وروحاً

ناضرة ، وسعادةً متجدّدة .. ولكنّ هذه الدنيا لا تملك لكم ما تطلبون ، وليس في متاهاتها ما تبتغون ..

لقد وهب الله هذه الحياة سعادة متجدّدة ، وروحاً ناضرة .. ببعثة سيّدنا محمّد ، شاهداً ومبشّراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً .. وكان للبشريّة شمساً أضوأ من شمس

الكون .. وللأرض كالغيث ، بعدما
اشتدّ عطشها ، وطال جدبها ،
وأقفر روضها ، وكان للجسد
المدنف كالعافية والحبور ،
وللعليل كالبلسم الطهور ..

أيّها الناشئان في روضة الإسلام ، وبؤرة النور .!

وجّهوا وجوهكم قبل سيرته ، ويمّموا رحالكم شطر منزله ، واملأوا قلوبكم من محبّته ، واغترفوا من هديه وسنّته ، وجدّدوا بسيرته معالم هذه الحياة ، التي أقفرت ربوعها من الأخلاق والقيم ، عندما تنكّبت عن سبيله

، وضلّت عن طريقه .. وقودوا ركب الإنسانيّة التائه من جديد ، إلى صراط الحقّ ، ومصدر النور ..

{.. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ } المائدة .

وإليكم قبساً من هذه السيرة المنوِّرة العطرة ، تدنيكم من روض هذا الحبيب ، وتعطّر

أنفاسكم بعَرف روضه النضير ، وتطيّب حياتكم بشذاه الغضّ الرطيب ..

أيّها الناشئون من أبنائنا وبناتنا .!

إنّكم بحاجة ماسّة إلى المثل الأعلى ، الذي تتطلّعون إليه في كلّ خطوةٍ من خطوات حياتكم ، والإنسانِ الكامل الذي تمنحُونَه حبّكم الصادق ، وولاءكم الأسمى .. ولن تجدوا ذلك إلاّ في محمّد بن عبد الله ، سيّد الأوّلين والآخرين ..

وإنّنا لنتحمّل نحوكم مسئوليّة جسيمة ، لتقديم

الصورة المقرِّبة المحبِّبة ، نحوَ
هذا النبيّ العظيم ..
فهاكم قبساً منْ هذا النور ،
وومضة من هَذا السناء الطهور ..
وفاء لبعض الحقّ علينا ، والله
يتولاّنا وإيّاكم بجميل لطفه
وعنايته ، وهو يتولّى الصالحين .

:

لقد حبا الله نبيّه العزّ المكين ، والنصر المبين ، بشّره أوّل عهده بالنبوّة بقوله سبحانه : { وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝ }الضحى ، فهل ترى عطاء لله أوسع من عطاء الله له في حياته ، وخلال هذه القرون المتطاولة .؟! ورفع له ذكره في العالمين ، فالثناء المحمود عليه كلّ آن ،

وبكلّ لسان : { وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ }
الشرح ، وأخزى الله عدوّه ،
وكبته وكفاه شرّه : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ
ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ } الحجر ، وقطع
أثر مبغضه اللئيم فقال سبحانه :
{ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ }
الكوثر .

فانظر أيّها العاقل هذه الآيات بعين البصيرة تكن من أهل السعادة والزيادة .!

واعلم أخي المؤمن وفّقنا الله وإيّاك : أنّه مهما تعدّدت جوانب العظمة في حياة الرسول

وتحدّث الناس عنها ، وأفردوها بالبحث والعناية فإن مردّها جميعاً إلى العظمة النفسيّة التي جبله الله عليها ، وأودعها في فطرته ، وجعله سيّد ولد آدم بما خصّه من خصائص ، وما حباه من مكرمات ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله سبحانه :

{وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤} الأنعام .

ومما يجلّي المعنى المـراد في هـــذه الآية ما جـــاء في الحـــديث الشـــــــــريف عَنِ المُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَـالَ : قَـالَ الْعَبَّاسُ : بَلَغَـهُ □ بَعْضُ مَا يَقُـولُ النَّاسُ قَـالَ : فَصَـعِدَ المِنْبَــرَ ، فَقَــالَ : (**أيُّها النَّاسُ ! مَنْ أَنَا ؟ قَـالُوا : أَنْتَ رَسُــولُ الله ، فَقَـــالَ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْـدِ الله بْنِ عَبْـدِ المُطَّلِبِ ، إِنَّ الله خَلَقَ الخَلْـقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْـــرِ خَلْقِـــهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِـــرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْـــرِ فِرْقَـــــةٍ ، وَخَلَـــــقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْـــرِ قَبِيلَـــةٍ ،**

وَجَعَلَهُمْ بُيُوتاً ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْـرِهِمْ بَيْتــاً ، فَأَنَا خَيْـرُكُمْ بَيْتاً ، وَخَيْرُكُمْ نَفْساً) [1] .

فعظمة محمّد تتجلّى في أخلاقه الشريفة وشمائله ، التي انبثق عنها كلّ ما اتّصل بشخصيّته من فضـــائل ومكـــارم ، وقد دلّ عليها ما جاء به من مبادئ سامية ، وقيم رفيعة ، وما قـــــام به من أعمـال جليلة ، وتغيـير عظيم في حياة الأمّة الـتي بعث فيها ، حـتى تحقّق فيه بصدق أنه أخرج الناس

[1] (?) ـ رواه الترمذي في الدعوات /3455/ وفي المنـاقب /3541/ وقـال : هـذا حـديث حسن ، ورواه أحمد في المسند /24139/ واللفظ له .

من الظلمــات إلى النــور بــإذن ربّهم ، كما أخـــرج للنـــاس جيلاً قياديّــاً صــالحاً ، قــاد البشــريّة بشريعة الله ، وأقام فيهم موازين الحــقّ والعــدل ، وأنشأ حضــارة إنســـانيّة فاضـــلة ســـعدت بها البشريّة قروناً

وينبغي أن يعلم أن خصـــال الكمـــال والجمـــال في البشر نوعان :

ـ **النـوع الأول** : ضـروريّ دنيــويّ اقتضــته الجِبِلّة وضــرورة الحيـاة الـدنيا ، وليس للمـرء فيه اختيار ولا اكتساب ، ككمـال الخلقة

، وجمـال الصـورة ، وقـوّة العقل ، وصـحّة الفهم ، وفصـاحة اللسـان ، وقـوّة الحـواسّ وسـلامة الأعضـاء ، وشرف النسب وعزّة القوم ..

ويلحق بهـذا النـوع ما تـدعو ضـرورة الحيـاة إليه ، من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، والنوم والمنكح ، والمال والجاه .

وقد تلحق هـــذه الخصــــال الأخيرة بالنوع الثـاني إذا قصد بها التقــــوى ، ومعونة البــــدن على ســـلوك طريق الآخـــرة ، وكـــانت بحدود الحاجة ووفق الشريعة .

ـ **والنوع الثاني** : مكتسب دينيّ ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقــرّب إلى الله زلفى ، كــالأخلاق العليّة والآداب الشرعيّة : من الدين والعلم ، والحلم والصـبر ، والشـكر والعدل ، والعفّة والجــود ، والعفو والشـجاعة ، والحيـاء والمـروءة ، والرفق والرحمة ، وحسن الخلق والمعاشــرة .. وقد يكــون لبعض الناس من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجِبلّة ، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها .

فــإذا كــانت خصــال الكمــال والجمال ما ذكرنا ، ووجدنا الواحد

من النـاس يشـرف بواحـدة منها أو اثنتين ، حتى يعظم بين الناس قـدره ، ويضـرب باسـمه المثل ، فما ظنّك بعظيم قـــــــدر من اجتمعت فيه كـلّ هـذه الخصـال ، إلى ما لا يأخذه عدّ ، ولا يعبّر عنه مقال ، ولا ينال بكسب ولا حيلة ، إلاّ بتخصيص الكبير المتعـال ؛ مما خصّ الله به نبيّنا ، من فضـــيلة النبوّة والرسالة ، والخلّة والمحبّة ، وختم النبوّة به وعمــوم دعوته ، وإعطائه الشـــفاعة والوســيلة ، وشـــرح الصــدر ، ووضع الــوزر ، ورفع الـــذكر ، وعـــزّة النصر ، وإجابة الـدعاء ، وإعطـاء السـؤل

وتمـام الفضل ، ونـزول السـكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتـاء الكتـاب والحكمة ، والســـبع المثـــاني والقـــــــرآن العظيم ، والتأييد بـالمعجزات ، ونبع المـاء من بين أصـابعه ، وتكثـير الطعـام القليل ببركته ، وانشـــــــقاق القمر ، والإسـراء والمعـراج ، والعصـمة من النـاس [1] .. وبالجملة فإنّـه أعلى النـــاس قـــدراً ، وأرفعهم ذكراً ، وأكملهم محاسن وفضلاً .

ـ وصــــفه الخِلقيّ : **وأما صــفته الخِلقيّة** فقد جـــاء في

---

[1] ـ ينظر الشــفا للقاضي عيـاض 1/77 وما بعد ، بتصرّف واختصار .

ذلك ما رواه إِبْـــــرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ
مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَـالِبٍ قَـالَ
كَانَ عَلِيٌّ إِذَا وَصَفَ النَّبِيَّ قَالَ
: (لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ المُمَّغِطِ ، وَلا
بِالْقَصِيرِ المُتَرَدِّدِ ، وَكَانَ رَبْعَـةً مِنَ
الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالجَعْدِ الْقَطَـطِ ،
وَلا بِالسَّبِطِ ، كَانَ جَعْداً رَجِلاً ، وَلَمْ
يَكُنْ بِــالمُطَهَّمِ ، وَلا بِــالمُكَلْثَمِ ،
وَكَــانَ فِي الْوَجْــهِ تَــدْوِيرٌ ، أَبْيَضُ
مُشْــــرَبٌ ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ ، أَهْـــدَبُ
الأشْفَارِ ، جَلِيلُ المُشَاشِ وَالْكَتَدِ ،
أَجْـرَدُ ذُو مَسْـرُبَةٍ ، شَـثْنُ الْكَفَّيْنِ
وَالْقَـدَمَيْنِ ، إِذَا مَشَــى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا
يَمْشِــــي فِي صَـــبَبٍ ، وَإِذَا الْتَفَتَ

الْتَفَتَ مَعاً ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُـوَّةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، أَجْـوَدُ النَّاسِ كَفًّا ، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْراً ، وَأَصْـدَقُ النَّاسِ لَهْجَـةً ، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَـةً ، وَأَكْـرَمُهُمْ عِشْـرَةً ، مَنْ رَآهُ بَدِيهَـةً هَابَـهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَـةً أَحَبَّهُ يَقُـولُ نَاعِتُـهُ : لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ) [1] .

قَـالَ أَبُو جَعْفَـر : سَـمِعْتُ الأَصْمَعِيَّ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ صِفَةَ النَّبِيِّ :

ـ المُمَّغِـطُ : الـذَّاهِبُ طُـولاً ، وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيّاً يَقُـولُ : تَمَغَّطَ فِي نُشَّابَةٍ أَيْ مَدَّهَا مَدّاً شَدِيداً .

---

[1](?) ـ رواه الترمذي في سـننه /3571/ وقَـالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ .

ـ وَأَمَّا المُتَرَدِّدُ : فَالـدَّاخِلُ بَعْضُـهُ فِي بَعْضٍ قِصَراً .

ـ وَأَمَّا الْقَطَـــطُ : فَالشَّـــدِيدُ الجُعُودَةِ ، وَالرَّجِلُ الَّذِي فِي شَعْرِهِ حُجُونَةٌ ، أَيْ يَنْحَنِي قَلِيلاً .

ـ وَأَمَّا المُطَهَّمُ : فَالْبَـــادِنُ الْكَثِيرُ اللَّحْمِ .

ـ وَأَمَّا المُكَلْثَمُ : فَالمُـــدَوَّرُ الْوَجْهِ .

ـ وَأَمَّا المُشْـرَبُ : فَهُـوَ الَّذِي فِي نَاصِيَتِهِ حُمْرَةٌ .

ـ وَالأدْعَجُ : الشَّـــدِيدُ سَـــوَادِ الْعَيْنِ .

ـ وَالأهْدَبُ الطَّوِيلُ الأشْفَارِ .

ـ وَالْكَتَدُ : مُجْتَمَعُ الْكَتِفَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ .

ـ وَالمَسْــرُبَةُ : هُــوَ الشَّــعْرُ الــدَّقِيقُ الَّذِي هُــوَ كَأَنَّهُ قَضِــيبٌ مِنَ الصَّدْرِ إِلَى السُّرَّةِ .

ـ وَالشَّثْنُ : الْغَلِيظُ الأصَابِعِ مِنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ .

ـ وَالتَّقَلُّعُ : أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ .

ـ وَالصَّـبَبُ : الحُـدُورُ ، يَقُـولُ : انْحَدَرْنَا فِي صَبُوبٍ وَصَبَبٍ .

ـ وَقَوْلُهُ : جَلِيلُ المُشَاشِ يُرِيدُ رُءُوسَ المَنَاكِبِ .

ـ وَالْعِشْــــرَةُ : الصُّــــحْبَةُ ، وَالْعَشِيرُ الصَّاحِبُ .

ـ وَالْبَدِيهَةُ : المُفَاجَأَةُ ، يُقَـالُ : بَدَهْتُهُ بِأَمْرٍ أَيْ فَجَأْتُهُ .

وعَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ عَلِيٍّ قَـالَ : " لَمْ يَكُنْ رَسُـولُ الله بِالطَّوِيلِ وَلا بِالْقَصِـيرِ ، شَـثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، ضَـخْمَ الـرَّأْسِ ، ضَـــخْمَ الْكَـــرَادِيسِ ، طَوِيـــلَ المَسْـرُبَةِ ، إِذَا مَشَـى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤاً كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ " [1] .

وعَنْ رَبِيعَـــةَ بْنِ أَبِي عَبْـــدِ الـرَّحْمَنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِـكٍ أَنَّهُ

---

[1](?) ـ رواه الترمذي في المناقب /3570/ وقَالَ : هَــذَا حَــدِيثٌ حَسَــنٌ صَــحِيحٌ ورواه أحمد في المسند .

سَمِعَهُ يَقُولُ : كَـانَ رَسُـولُ الله ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلا بِالْقَصِــيرِ ، وَلَيْسَ بِـالأَبْيَضِ الأَمْهَـقِ ، وَلَيْسَ بِـالآدَمِ ، وَلَيْسَ بِالجَعْـدِ الْقَطَـطِ ، وَلا بِالسَّبْطِ ، بَعَثَهُ الله عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَــنَةً فَأَقَــامَ بِمَكَّةَ عَشْــرَ سِنِينَ ، وَبِالمَدِينَـةِ عَشْـرَ سِـنِينَ ، وَتَوَفَّاهُ الله عَلَى رَأْسِ سِـتِّينَ سَـنَةً ، وَلَيْسَ فِي رَأْسِــــهِ وَلِحْيَتِــــهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ [1] .

---

[1] (?) ـ رواه البخــاري في اللبــاس/5449/وفي المنــــاقب /3284/ و/3285/ ومســــلم في الفضـــائل/4330/ والترمـــذي في المنـــاقب/ 3556/وأحمد /13031/ ومالك في الموطّأ / 1434/ .

إنّ الأمانة هي ملتقى الفضائل النفسيّة كلها ، وقوامها : اعتـدال الفطـرة ، وسـموّ الهمّة ، واتّزان الشخصــيّة ، وعفّة النفس ، وتجرّدها عن سفســاف الأمــور والاهتمامات الدنيا .

ولقد شهدت قـريش بإجمـاع رجالها وعقلائها لرســـــول الله بالأمانة قبـــــل نبوّته وشـــــهد له القــرآن الكــريم بــالخلق العظيم بعد رســالته ، ولا بــدّ من نظــرة إلى شهادة قريش من زاويتين :

ـ **الزاوية الأولى** : من زاوية الـدافع إلى هـذه الشـهادة وقيمتها ؛ فلابــدّ أن الأمانة الــتي تحلّى بها النـبيّ كـانت ظـاهرة محـــلّ بـــروز وتـــألّق وتميّز ، في شخصيّته وسلوكه ، بصورة جذبت أنظــار المراقــبين ، ولفتت انتباه المجتمع من حوله ، وانــــتزعت منهم شـدّة إعجـابهم ، كما كـانت تعبـــيراً عن اجتمـــاع حقائقها ، وتـــآلف معانيها ، لتكـــون حقيقة كـبرى ، تنتظم من خلالها شخصـيّة المصطفى بصورة معجزة إنسانيّة لم يسـبق لها مثيل ، كـلّ ذلك كـان

في بيئة ، لم تكن بيئة علم وتثقيف ، ولم تعرف من الأمانة إلا جزئيّـات متنـــــاثرة ، ولم تعرفها كلاً لا يقبل التجـــزيء أجمع والتبعيض إلا في حياة محمّد وسلوكه ، ولولا فقد بيئته لهـــذه الصـــفة ، واجتمـــاع حقائقها ، وتـــآلف معانيها فيه لما أجمع قومه على وصفه بها ، ولما كان في ذلك كبير فائدة ، أو مزيد مزيّة .

ـ **والزاوية الأخــرى** : أن هـذه الشـهادة من قـريش كـانت عن مرحلة تعـــدّ أخطر المراحل الـــتي يمـــرّ بها الشـــاب ، وهي

مرحلة اكتمـــال الرجولة ، واتّقـــاد الغرائز ، وهي مرحلة تختلف فيها الأغـــراض والغايـــات ، والنـــوازع والاتّجاهـــات ، وفي الشـــابّ في تلك المرحلة من موفور القـوّة ما يجعله ينـــــدفع وراء تحقيقها إلى أقصى المدى ، ومع ذلك كلّه فقد بقي هذا اللقب يصـحب محمّـداً ﷺ ويطبع شخصـــيّته طيلة حياته قبل البعثة ، ولم تعرف عنه قريش ما يخرم هـذه الأمانة أو يشـذّ عنها ، فمن ثمّ لم تســـتطع قـــريش أن تـنزع هـذا اللقب عن محمّد ﷺ بعد رسـالته ؟ كما أنها لم تسـتطع أن

تمنحه أحــداً من زعمائها ؟ حــتى أولئك الذين كانت تأتمر بأمرهم ، وتصدر عن رأيهم ؟.

فهل أنطق الله تعــالى قريشــاً بما قـالت ، ليكـون من قولها حجّة ساطعة لمن يقول بعصمة الأنبياء قبل النبوّة وبعدها ؟ ولتكــون تلك الحجّة على لســـان المخـــالف المعـــادي أبلغ في الشـــهادة ، وأقـــــوم في البيّنة ، وأدنى ألا يرتاب المرتابون .؟

ثمّ إن هـــذه الشـــهادة من قريش تـدلّ على أن الأمانة الـتي عرفتها قــريش في شخصــيّته □ ،

كـــانت خلقـــاً أصـــيلاً نابعـــاً من
فطرته ، الـتي فطـره الله عليها ،
واختصّـــــه بها ، بما تحـــــوي من
الفضـــائل والكمـــالات ، فمن ثمّ
فقد كــــان معـــــزولاً عن البيئة
المحيطة به ، ومحصّـــــــناً عنها ؛
فأنى لها أن تؤثّر فيه ، أو تغيّره ؟
وإن منطق الحقّ في مثله أن يــؤثّر
فيما حوله ولا يتـــأثّر ، وأن يغـــالب
الظـواهر الاجتماعيّة ، ويتغلّب عليها
، حــــتى يصـــــهرها في فضــــائله ،
ويشــــحنها بنســـــائمه ، ويطبعها
بطابع منهجه ورسالته .

عَنْ سَـعْدِ بْنِ هِشَـامٍ قَـالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ : أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُـقِ رَسُـولِ اللـهِ ؟ فَقَـالَتْ : (**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**) [1] .

عَنْ سَـعْدِ بْنِ هِشَـامِ بْنِ عَـامِرٍ قَـالَ : أَتَيْتُ عَائِشَـةَ ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّ المُـؤْمِنِينَ أَخْبِـرِينِي بِخُلُـقِ رَسُـولِ اللهِ ؟ قَالَتْ : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قَوْلَ اللـهِ عَـزَّ وَجَـــلَّ : {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤} القلم ، قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيـدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ

---

[1] (?) ـ رواه أحمد في المسند /24139/ .

قَالَتْ : لا تَفْعَـلْ ، أَمَا تَقْـرَأُ : {لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾

} الأحزاب ، فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ

وَقَدْ وُلِدَ لَهُ [1] .

فهل عرفت قريش فتىً أطهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشـــرف نســـباً ، وأكـــرم حســـباً ، وأعظم خلقـــاً من محمّد بن عبد الله .؟

لقد لقّبته الأمين ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عـــــــرفت أحد زعمائها بـــذلك لما ضـــنّت عليه

---

[1](?) ـ رواه أحمد في المسند /23460/ .

بتلك الصـــــفات واختصّــــت بها محمّداً من دونه .

ووصــــــــفته زوجه العاقلة الحكيمة وقد عاشت معه خمس عشـــرة ســـنة ، خـــبرت خلالها شخصيّته وأخلاقه ، فقالت له أول عهده برسالة السماء ، وقد داخله الخوف مما جرى معه :

" كلا ! واللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبداً ؛ إنّكَ لَتَصِلُ الــرحِم ، وتحمِــلُ الكَــلّ ، وتَقــري الضيفَ ، وتَكسِـبُ المَعدُومَ ، وَتُعينُ على نَوائِبِ الحقّ " .

لقد كـان دائم السـؤال لله عزّ وجلّ ، كثير الضراعة والابتهال ، أن يزيّنه الله بمكـــارم الأخلاق والآداب ، وكـان يقـول : (**اللهمّ كما حسّـنت خَلقي فحسّـن خُلُقي**) ، فكـان خلقه القـرآن يرضى لرضـاه ، ويغضب لغضـبه ألا تقـرءون القـرآن .؟ لقد كـان الصـورة الحيّة للحـقّ الـذي بعثه الله به ، واصطفاه لنشره وإحيائه ، وإنّــك لن تـرى شـيئاً من آداب القرآن إلاّ وكـانت صـورتَه العمليّةَ حياةُ محمّد : { .. وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ }
النساء .

ولقد لخّص الغاية من بعثته ، والأهداف العليا لرسالته بقوله : (**إنما بعثتُ لأتمّمَ مكـــــارمَ الأخلاق**) .. فهل ترى في شيء من رســالته وهديه ما يــنزل عن أكمل الأخلاق ، وأحسن الآداب .؟

وكان حسن العشـرة ، كـريم الصـــنيعة ، ليّن الجـــانب ، يحبّ اليسر ويؤثره ، ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فـإن كـان إثمـاً كـان أبعد النـاس

عنه ، بعث بالحنيفيّة الســـــمحة ، وأرســــله الله رحمة للعـــالمين ، وبشرى للمؤمنين .

لقد رفع رســـول الله همم أمّته ليكونوا عنــدما يحبّه الله لهم ويرضاه ؛ فبيّن لهم أن الله تعالى يحبّ معـــالي الأمـــور ، ويكـــره سفسافها .

وكان يحبّ بذل المعروف ، ويـــدعو إلى خصـــال الخـــير كلّها ، كإطعـام الطعـام وإفشـاء السـلام ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وخدمة الضعيف ، وإغاثة اللهفان ، وإجابة الدعوة .

وكـان ﷺ يجيب دعـوة الحـرّ والعبد ، ولا يـأنف عن إجابة الضـعيف المسـكين ، أو العبد أو الأمة .

وكان ﷺ يـدعو أصـحابه إلى ما يهـدى إليه من طعـام ، ولا يـؤثر نفسه أو أهله به ، ويتفقّد أهل الفاقة من أصـحابه ، ويحسن إليهم ويواسـيهم ، ولا يختصّ دونهم بشيء .

وكان ﷺ يحبّ العفو ، ويسـعى في الإصلاح بين الناس ، ويحـرص على جمع القلـوب على الحـقّ والهدى .

وإنّ المجتمعــات القبليّة هي أشــدّ المجتمعــات حفاظــاً على التقاليد والعـــــادات ، وأعتاها في الخصومة والبغضاء ، وأعصى على التطويع ، وأبعد عن التـــــــأليف والتجميع ، ومع ذلك كلّه .. وغـــيره وغـيره .. فقد ذابت بـدعوة رسـول الله عصـــبيّة الجاهليّة وطغيانها ، وامّحى عنفوانها ونعراتها في مـــدّة لا تزيد عن عقـــدين من الـزمن ، ما هما إلاّ كلمحـتين من نظر التـــاريخ ووعيه وتطـــوّره وتقلّب أحداثه .

فهل رأيت عظيمــاً من عظمــاء الــــدنيا كلّها اســــتطاع أن يجمع القلـــوب النـــافرة ، والنفـــوس الجامحة ، بقوّة الحبّ ، وسـلطان الحقـائق الإنسـانيّة الخالـدة الـتي أحكمت بالــدين ، ثمّ فصّــلت على ثوب الفطرة فكانت صــبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة .؟!

فما اســـتطاع أحد أن يجمع القلــوب المتنــافرة ، ويؤلّف بين النفـــوس المتباينة كما اســـتطاع ذلك رسول الله بإذن الله تعالى

وتوفيقه ، ومنّته وعنايته : { .. هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ } الأنفال .

لقد وقف رسول الله ﷺ يعلن إعلانــاً لم يكن شــعاراً يرفع ، ولا دعوى يتمنّى بلوغها المصــلحون ، أو يطمح إليها الطــامحون ، وإنما كانت حقيقة ناصعة ، توّجت جهاد عقدين من الزمن ، وترجمت نجــاح دعوته ، وأهــداف رســالته ، وكأنها

صـورة من صـور الشـكر والثنـاء على الله تبـارك وتعـالى بما أنعم وتفضّـــل .. وقف المصـــطفى ليقـــول في حجّة الـــوداع : (**إن كـلّ شـيء من أمر الجاهليّة موضوعٌ تحتَ قدميّ هاتين** ..) .

فانظر : أكـانت تلك دعـوى ، أم أنها حقيقة عليا بلغتها الـــدعوة .؟!

لقد كــانت ســاعات عمـــره شــــهوراً ، وشـــهوره أعوامـــاً ، وأعوامه تحتضن أجيـــــالاً ، هي

مجمل ما قـــــــدّر الله من عمر للإنسانيّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فكـان يجاهد بلسـانه وسيفه ، ويرشد أصحابه ويــؤدّبهم ، ويعلّمهم الكتـــــــــاب والحكمة ويـــــــــزكّيهم ، بأقواله وأفعاله وأحواله ، ويــأمرهم بــالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ..

وكــان يتقــدّم أصــحابه في سـاحات الـوغى ، فما يكـون أحد منهم أقرب إلى العــدوّ منه ، وإن الشـــجاع منهم من يســـتطيع أن يحـاذي به في سـاعات القتـال ، وكان يصفّهم للقتـال كما يصـفّهم

للصلاة ، ويحثّهم على تسوية الصفوف كما تصفّ الملائكة .

وكان ﷺ أشجع الناس ، وأثبت الناس ، وأصبر الناس ، وكان إذا اشتدّ البأس ، واحمرّت الحدق ، اتّقى أصحابه به ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه ، وكان يعلن عن نفسه في أرض المعركة ولا يستتر .

وكان ﷺ ينظّم الجيوش ، ويصدر الأوامر للقوّاد ، ويحثّهم على الصبر والجهاد ، وكان يستشيرهم في كلّ شأن لم ينزل

فيـه وحي ، ويـنزل على ما يـراه صواباً من آرائهم ، وكان يدبّر لهم الخطط الحربيّة ، ويـــدرّبهم على القيادة والحزم في أمورهم ..

وكــان إذا خطب احمــرّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه ، كأنه منذر جيش يقول : صبّحكم .. مسّاكم ..

وكــان إذا دخل بيته يكــون في مهنة أهله : يخدمهم ، ويخـدم نفسه ؛ فـــــيرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويتلطّف في عشـــرة أهله ويحسن معـــاملتهم ؛ فيــــداعب

الصغير ، ويؤنس الكبـيرـ ، ويغضي عن الهفـوة ، ويؤلّف بين نسـائه ، ويخفّف من غيرتهنّ .

وما ضرب رسول الله بيده خادماً ولا امـرأة إلاّ أن يجاهدَ في سبيل الله تعالى .

وكـان ربما غفل الخـادم عن الأمر يطلبه منه فلا يرضى لأحد من أهله أن يعنّفه ، ويقـــول : (**دعوه ، فلو قُدّر أمرٌ لكان**) .

خدمه أنس بن مالك عشر سـنين ، " **فما قال له لشـيء**

فعله : لم فعلته .؟ ، ولا لشيء تركه لم تركته .؟ " .

وكـان إذا حضـرت الصـلاة خـرج إلى الصـلاة ، لا يشـغله عن طاعة ربّه شـــــيء ، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبـــــــادة الله تعالى ، والضــراعة إليه ، لا يطيق أحد ـ مهما اجتهد ــ أن يجاريه في صـلاته ودعائه ، وصـيامه وعبادته ؛ فكان يقوم من الليل حـتى تتفطّر قدماه ، وكـان يقـوم نصف الليل ، أو يزيد عليه ، ثمّ يكون في النهار في رعاية أصـــــحابه وتعليمهم ، وفي جهاد الدعوة ، وقيادة الأمّة .

وكـان يصـوم حـتى يقـول أهله : " لا يفطر " لكثرة صيامه ، ويواصل الصوم يومين وثلاثة أيـام أو أكـثر ، وينهى أصحابه عن ذلك رحمة بهم ، وشـفقة عليهم ، لأنّـه ليس مثلهم ، يـبيت عند ربّه يطعمه ربّه ويسقيه .

وكان أسـخى النـاس كفّـاً ، ما سئل شيئاً فقال : لا .

وكان أجود بـالخير من الـريح المرسـلة ، وكـان ربّما يسـأل العطاء فلا يجده ، فيقـول لسـائله

 : (**استدن عليّ ، حتى يأتينا مال فنقضيه**) .

وكان يُعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر ، ولم يزل يُعطي المؤلّفةَ قلوبهم ، حتّى أحبّوه أعظم الحبّ ، وأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم .

وكان يعطي العطايا الجزيلة ، ويبيت طاوياً هو وأهله ، لم يخصّ نفسه بشيء ، ولم يحمل إلى بيته درهماً مما يأتيه .

وكان يعفو عمّن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ولم يكن يغضب لنفسه ،

ولا ينتصر لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمـــــات الله ، فـــــإذا انتهكت حرمــات الله تعــالى لم يقم لغضبه شيء .

ولقد أوذي في الله تعـــــالى أشدّ الإيذاء ، فلم يـدع على قومه ، ولم يتطلّع إلى الانتقـــام منهم ، وإنما كـان يقـول : (**اللهمّ اهـدِ قومي فإنهم لا يعلمون**) .

وعنـــدما نـــال منهم أشـــدّ الأذى عُـــــرض عليه عـــــذابهم وهلاكهم ، فقـــــــال : (**لا ، بل أرجو أن يخـــــــرج الله من**

أصـــــلابهم من يعبد الله ، لا يشرك به شيئاً) .

وكـان أحلم النـاس وأشـجع النـاس ، وأعـدل النـاس ، وأعـفّ الناس ، لم تمسّ يده يد امـرأة لا تحلّ له

وكـان أشـدّ النـاس حيـاءً ، وكان أشـدّ حيـاءً من العـذراء في خـدرها ، وكـان لا يثبت بصـره في وجه أحد ، يُغضي عمّـــا يكـــره ، ويتغافل عمّا لا يَشتهي .

وكـان يقبل الهديّة ، ويـثيب عليها بــأكثر منها ، ويأكل الهديّة ، ولا يأكل الصدقة .

وكـــــان يعصب الحجر على بطنه من الجـــــــوع ، وربما عصب الحجـــــرين ، وإذا لم يجد ما يأكل أتمّ يومه صائماً .

وكـــــان يأكل ما حضر ، ولا يأكل متّكئاً ولا على خوان ، وكــان إذا تغـدّى لم يتعشّ ، وإذا تعشّــى لم يتغــدّ ، ولم يشـــبع من خـــبز الشــعير ثلاثة أيــام متتالية حــتى لقي الله عــزّ وجــلّ ، زهــداً في الدنيا ، وإيثاراً للآخرة على الأولى ، لا فقراً ولا بخلاً .

وكـــــان يمـــــرّ الهلال والهلال والهلال ، ثلاثة أهلّة في شــــهرين وما يوقد في أبيات رســول الله نار ، وإنما كان طعامهم الأسودان : التمر والماء .

وكـــان ربما يأتيه الضـــيف يريد أن يطعمه ، فيرسل إلى زوجاته هل عنـدكنّ من طعـام .؟ فتقسم كلّ واحـدة منهنّ أن ليس لـديها من طعـام ، فيأخذ الضـيف بعض أصحابه .

وإنما كان هذا الحال اختيـاراً منه ، فقد خيّـره الله تعـالى بين أن يكون نبيّاً عبداً ، أو يكون نبيّـاً ملكاً ، فاختار أن يكون عبـداً نبيّـاً ، وقال : (**أجوع يوماً فأصبر ، وأشبع يوماً فأشكر**) .

وكـان أحسن النـاس وجهـاً ، وأظهـــرهم بشـــراً ، وأكـــثرهم تواضــعاً ، قد أعطــاه الله جوامع الكلم ، وشــوارد الحكم ، واختصر له الكلام اختصـــــــاراً ، لا يهوله شيء من شـئون الـدنيا ، إذا رأى ما يعجب منها قـــال : (**اللهمّ لا**

عيش إلا عيش الآخرة ..) ، لا يمدّ عينيه إلى زينة الدنيا وزهرتها ، وكان يقول :

(**ما لي وللــدنيا .؟! ما أنا في الـــدنيا إلاّ كـــراكب اســتظلّ تحت شــجرة ، ثمّ راح وتركها**) .

وكـــــــان يلبس ما وجد ، ويركب ما تيسّر له من فرس ، أو بغلة ، أو حمار ، أو بعير ، ويـردف خلفه عبـــده أو غـــيره ، وكـــان يمشي راجلاً ، حافيـاً أو بنعلين أو

خفّين ، وربما مشى بغـــير رداء ، ولا عمامة ولا قلنسوة .

وكـان يحبّ الطيب ، ويـأمر أصـحابه بحسن المظهر ، ويكــره لهم الرثاثة ، ويكـــره كـــلّ رائحة كريهة ، ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المســـــاكين ويقبل على جليسه حـــتى يـــرى أن ليس أحد أفضل عنــده منه ، ويكــرم أهل الفضل ويـــدنيهم ، ويـــنزلهم منـــازلهم ، ويعرف للناس أقـدارهم ، ويتـألّف أهل الشــــرف بــــالبرّ بهم ، ويصل رحمه ، ولا ينســاهم ، غـــير أنه لا يــؤثرهم على من هو أفضل منهم

، ويقبل المعـــذرة ، ولا يجفو في وجه أحد ، قد وسع النـــاسَ حلمُه وبرُّه .

وكـــان يمـــازح أصـــحابه ونساءه ، ويـداعب الأطفـال غـير أنّه لا يقول في ذلك كلّه إلاّ حقّاً ، ولا ينطق إلا صـدقاً ، وكـان جُـلّ ضحكه التبسّم ، وربما ضـحك من غير قهقهة .

وكـــان متواصل الأحـــزان ، دائم الفكـرة ليست له راحة ، ولا يتكلّم في غـــــير حاجة ، طويل الســكوت ، يفتتح الكلام ويختتمه

بأشــداقه ـــ لا بــأطراف فمه ـــ ويتكلّم بجوامع الكلم فصــــــلاً لا فضــول فيه ، ولا تقصــير ، دمثــاً ليس بالجافي ولا بالمهين ، يعظّم النعمة وإن دقّت لا يـذمّ شـيئاً ولا يعيبه ، ولم يكن يذمّ طعامـــــاً ولا يمدحه ، إن اشـــــتهاه أكله ، وإن كرهه تركه .

وكـــان لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وإذا انتهكت حرمـــات الله لم يقم لغضــبه شــيء حــتى ينتصر له ، إذا أشـــار أشـــار بكفّه كلّها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشـاح ، وإذا فـرح

غضّ طرفه ، جُلّ ضحِكِه التبسّمُ ، ويَفـــترّ عن مثل حبّ الغمـــام ، وكان لا يثبت نظــره في وجه أحد ، خــافض الطــرف ، نظــره إلى الأرض أكـــثر من نظــــره إلى السـماء ، جـلّ نظـره الملاحظة ، ولا يشـافه أحـداً بما يكـره ، وإذا بلغه عن أحد ما يكرهه قـــال : (**ما بـال قـوم يفعلـون كـذا وكذا** .؟!) .

وكـان يخزن لسـانه عمّـا لا يعنيه ، يؤلّف أصحابه ولا ينفّرهم ، ويجمعهم ولا يفـــرّقهم ، يكـــرم كـريم كـلّ قـوم ، ويولّيه عليهم ،

ويحــذر النــاس ويحــترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد بِشــره ..

وكـــــان يتفقّد أصـــــحابه ، ويســأل النــاس عما في النــاس ويحسّــن الحسن ويصــوّبه ، ويقبّح القـبيح ويوهنه ، معتـدل الأمر غـير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملّوا ، لكلّ حـال عنـده عتـــاد ، لا يقصر عن الحـــقّ ولا يجاوزه ، يليه من النـاس خيـارهم وأفضـلهم عنـده أعمّهم نصـيحة ، وأعظمهم عنــده منزلة أحســنهم مواساة ومؤازرة .

وكان ﷺ لا يجلس ولا يقــوم إلا على ذكر ، ولا يــوطّن الأمــاكن ــ أي لا يميّز لنفسه مكانــاً خاصّــاً ــ وينهى عن توطينها ، وإذا انتهى إلى القـــوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويـأمر بـذلك ، ويعطي كـــلّ جلســائه نصـــيبه ، حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحـداً أكـرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكــون هو المنصــرف عنه ، ومن ســأله حاجة لم يــردّه إلا بها أو بميسور من القــول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ؛ فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحــقّ

سواء ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحيـاء وصـبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تـــؤبن فيه الحـــرم ، ولا تخشى فلتاته ، يــــوقّرون فيه الكبـــير ، ويرحمـون الصـغير ، ويرفـدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب ، وكان أحبّ إليهم أن يقومـــــوا إليه إذا حضر إليهم ، إلاّ أنهم كـــــانوا لا يقومـون لما يعلمـون من كراهته لـذلك ، وكـان ينهـاهم أن يطـروه كما أطـرت النصـارى عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقـول لهم :

(**قولــوا : عبد الله ورســوله**) .

وكـــان يقـــول : (**إنما أنا عبـــــــدٌ ، أجلِسُ كما يجلِسُ العبدُ ، وآكلُ كما يأكُلُ العبــدُ**) .

وقال مــرّة لرجل هابه حتّى ارتعدت فرائصه : (**هــوّن عليكَ ، إنما أنا ابنُ امرأة كانَت تأكُلُ القَديدَ بمكّةَ**) .

ـ وكـان دائم البشر ، سـهل الخلق ، ليّن الجانب ، ليس بفظّ ، ولا غليظ ، ولا صــــــخّاب ، ولا

فحّـاش ، ولا عيّـاب ، ولا مـدّاح ، ولا يجزي بالسيّئة السـيّئة ، ولكن يعفو ويصـــــــفح ، يتغافل عمّا لا يشـتهي ، ولا يُقنط منه ، قد تـرك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثـار ، وما لا يعنيه ، وتـرك النـاس من ثلاث : لا يـذمّ أحـداً ، ولا يعيّـره ، ولا يطلب عورته .

ـ وكـــان لا يتكلّم إلاّ فيما يرجو ثوابه ، وإذا تكلّم أطـــــــرق جلســـاؤه كأنما على رءوســـهم الطــير ، وإذا ســكت تكلّمــوا ، لا يتنازعون عنده الحــديث من تكلّم عنــده أنصــتوا له حــتى يفــرغ ،

حــديثهم حــديث أوّلهم ، يضــحك مما يضـــحكون منه ، ويعجب مما يعجبــون منه ، ويصـــبر للغــريب على الجفـــــــــوة في المنطق ، ويقـــول : (**إذا رأيتُم صـــاحب الحاجة فأرفِـدُوه**) ، ولا يطلب الثناء إلاّ من مكافئ .

وكـــــان أوقرَ النـــــاس في مجلسه ، لا يكاد يخــرج شـيئاً من أطرافه ، وكان كثير السـكوت ، لا يتكلّم من غــــير حاجة ، يُعــــرض عمّن تكلّم بغير جميل .

وكـــان ﷺ ضـــحكه تبسّـــماً ، وكلامه فصــــلاً ، لا فضــــول ولا تقصــــير ، وكـــان إذا تكلّم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه .

وكان ﷺ أحسن الناس وجهـاً ، وأحســنهم خلقــاً ، لو رأيته رأيت الشــمس طالعة ، وكـان إذا ســرّ اســتنار وجهه حتّى كأنّــه قطعة قمر .

يقـــول أبو هريـــرة □ : " **ما رأيت شـــــــيئاً أحسن من رسـول الله ﷺ كـأن الشـمس تجـري في وجهه ، وما رأيت**

أحـداً أسـرع في مشـيه من رسـول الله ، كأنما الأرض تطـــــوى له ، وإنا لنجهد أنفسـنا ، وإنه لغـير مكـترث " .

وكان إذا مشى تقلّع ، كأنما يمشي في صبب ، أو تكفّأ تكفّياً ، كأنما ينحـطّ من صـبب ، وإذا صـمت علاه الوقـار ، وإذا تكلّم علاه البهـاء ، أجمل النـاس وأبهـاهم من بعيد ، وأحسـنهم وأحلاهم من قـريب ، حلو المنطق ، لا نـزر ، ولا هـذر ، كـأن منطقه خرزات نظمن يتحدّرن .

وكان إذا التفت التفت معــاً ، وكان أجـود النـاس كفّـاً ، وأجـرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى النـــــاس ذمّة وألينهم عريكة ، وأكـــرمهم عشـــرة ، مَن رآه بديهةً هابَـــه ، ومَن خالطَـــه معرفةً أحبّه ، يقـــولُ واصفُه : (**لم أرَ قبلَــه ، ولا بعدَه مثلَــه**) .

وكـان يتكلّم بـالكلام لو عـدّه العـــادّ لأحصـــاه ولم يكن يســـرد الحديث سرداً ، وكـان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه .

ولم يرَ ﷺ قطّ مادّاً رجليه بين أصحابه ، وما دعاه أحد من أصحابه إلاّ قال : (**لبّيك .. لبّيك ..**) .

وكان ﷺ يكره أن يتميّز على أصحابه .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويؤنسهم ، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم ، ويسألهم عن خاصّة شئونهم ، ليعينهم على حاجاتهم ، ويداعب صبيانهم ، ويمازحهم ، ويجلسهم في حجره ، فربّما بال الصبيّ في

حجـــــره ، فلا يزيد على أن ينضح الماء على بوله ، ولا يتغيّر .

وكــان يصــلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء ..

وكـــــان يقـــــول : (**إني لأخشاكم لله ، وأتقـاكم له**) .

وكـــــــان لا يخصّ أهل بيته دون الناس ، بل كـان لا يسـاويهم بهم ، ويؤثر أصحابه بالعطاء دونهم ، تعليماً لهم على الزهد في الدنيا ، وإيثـار الآخـرة عليها ، أتـاه مـرّة ســـبي كثـــير فشـــكت إليه ابنته

فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من عنــاء خدمة الــبيت ، وطلبت منه خادمـــــاً يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تســـتعين بالتســـبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها ﷺ : (**لا أعطيكِ ، وأدعُ أهلَ الصفّة تَطوي بُطونُهم من الجوع**) .

وكانت مجالسه ﷺ مع أصحابه مجــالس تــذكير بالله ســبحانه وتعـــالى ، وتعليم ، وتـــرغيب وتــرهيب ، وإنــذار وتبشــير ، مما يـوجب لهم رقّة القلـوب ، والزهد في الدنيا والإقبـال على الآخـرة ،

والخروج عن الحظوظ النفســانيّة والأهواء البشريّة .

وكان يوصي أصحابه بتقــوى الله عزّ وجــلّ ، وصــدق الحــديث ، والوفــــاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورعاية حقّ الجــار ، والإحسان إليه وإكرام الضــيف ، ورحمة اليــــــتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وإطعـام الطعـام ، وتوقــــير ذي الشــــيبة ، والعفو والإصـــلاح بين النــــاس ، وكظم الغيظ ، والبعد عن الغضب ، وكثرة الذكر ، والاستغفار .

وكـان أصـحابه ربما عـدّوا له في المجلس الواحد أكـــــــثر من سبعين مرّة يستغفر الله تعـالى ، ويتوب إليه .

ولقد أبطل بدين الإسلام كلّ عـــــــــادات الجاهليّة ، وأخلاقها ومفاســـــدها ؛ فأبطل الغنـــــاء والمعازف ، وكلّ ذي وتر ، وحـرّم الكذب والغيبة ، والبخل والشـحّ ، والمكر والخديعة ، وسـوء الظنّ ، وفســـاد ذات الـــبين ، وقطيعة الأرحـام ، والكـبر وسـوء الخلق ، والفخر والاختيـال ، وقـول الـزور وشهادة الزور ، والحقد والحسد ،

والســــحر والطـــــيرة ، والبغي والعـــــدوان ، والبهت والنميمة ، والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

ولم يكن شــــيء أبغض إليه من الكذب ، وكان إذا اطّلــع على كذبة من بعض أهله لم يـــــــزل متغيّر الوجه معه حتّى يحدث توبة من ذلك .

وكـــــان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جــزء لله ، وجزء لنفسه ، وجــزء لأهله ، ثمّ جزّأ جزأه بينه وبين الناس ، فيردّ

ذلك بالخاصّـــــة على العامّة ، ولا يدّخر عنهم شيئاً .

وكـان من سـيرته في جـزء الأمّة : إيثــــــار أهل الفضل بإذنه وقســمه على قــدر فضــلهم في الدين :

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحــاجتين ، ومنهم ذو الحــوائج ، فيتشــاغل بهم ، ويشــغلهم فيما يصلحهم والأمّة من مسألتهم عنه ، وإخبــارهم بالــذي ينبغي لهم ، ويقــــول : (**ليبلّغ الشـــــاهد الغائبَ ، وأبلغوني حاجةَ مَن**

لا يســــتطيعُ إبلاغَها ، فإنّـــه مَن أبلغ سُلطاناً حَاجةَ مَن لا يَســــــتطيعُ إبلاغَها ثبّتَ الله قدميه يومَ القيامة) ، لا يذكر عنــــده إلاّ ذلك ، ولا يقبل من أحد غــــــــــيره .. يدخلون روّاداً ، ولا يفـــــــــــترقون إلا على ذواق ، ويخرجون أدلّة على الخير .

وكـــــان يكـــثر أن يشـــــاور أصحابه ، فيما لم يــنزل فيه وحي ، ويــنزل عند رأي بعضــهم ويعمل به ، وقـــال لصـــاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : (**لَــوِ**

اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُـــــورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا) [1] .

وكـــــان ﷺ يكنّي أصـــــحابه ، ويـدعوهم بـأحبّ الأسـماء إليهم ، ويغيّر لهم الأســــــماء القبيحة أو المكروهة إلى أسماء حسنة .

وكـــــــان ينهى عن الطِّيرة ، ويُعجبه الفأل الحسن ، وهو الكلمة الطيّبة ، وكـان يعجبه الـتيمّن في تنعّله وترجّله ، وفي طهـــــوره ، وفي شأنه كلّه .

وكـان ﷺ أبعد الناس في هديه وسـيرته عن كـلّ ما نهى النـاس

---

[1] (?) ـ كما في مسند الإمام أحمد : /17309/ .

عنه ، قد شـُغف قلبه الشـريف بعبـادة ربّه ، والاسـتغراق في مناجاته وذكـره ، قـام من الليل حـتى تـورّمت قـدماه وتفطّـرت ، فأشـفق عليه أهله وأصـحابه ، وقـالوا له : أتفعل ذلك يا رسـول الله ، وقد غفر لك ما تقـدّم من ذنبك وما تـأخّر .؟ قـال : (**أفلا أكون عبداً شكوراً** !؟) .

وكـان إذا حزبه أمر فـزع إلى الصلاة ..

وكان يقـول : (**أرحنا بها يا بلال ! أرحنا بها يا بلال** !) .

وكــان يقـــول أيضــاً : (.. **وَجُعِلَت قُــــرّةُ عَيـــــني في الصَّلاةِ**) .

وكان آخر كلامه من الــدنيا : (**الصـَّلاةَ .. الصـَّلاةَ .. وَمَـا مَلَكتْ أيمانُكُم ..**

اتّقُــوا اللهَ فِيمَــا مَلَكَتْ أيمانُكُم ..) .

الخاتمة

وبعد ؛ فإذا لم يكن محمّد بن عبد الله ﷺ نبيّـــــاً ، بل أفضل من اجتبــاهم الله بــالنبوّة ، وحبــاهم بالرسـالة ، فمن عسى أن يكـون نبيّاً .؟ وماذا يثبت من نبوّة سـواه من الأنبياء .؟

وإذا كان أهل الكتاب يقـرّون باصـطفاء الله بعض خلقه بـالنبوّة ، وتكليفهم بالرسـالة ، فـأنى لهم أن يثبتــــوا نبــــوّة أنبيائهم إن لم يعـترفوا بنبـوّة محمّد ﷺ ورسـالته .؟!

وإن لم يكن هــــــذا الفضل العظيم الـــذي أســـداه محمّد بن عبد الله للإنسانيّة ، وهـذه الأمّة العظيمة الـــتي أخرجها خـــير أمّة للنـــاس بـــإذن الله .. إن لم يكن ذلك من عمل النبوّة فمــاذا يمكن أن يكون إذن .؟

وهل يمكن أن يقـــــــاس ما قدّمه محمّد بن عبد الله للإنسانيّة بما قدّمه من سبقه من الأنبياء .؟

قل : صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثاً : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ

مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ } الأحزاب
.

هذا والله تعالى أعلمُ ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصَحبه وسلّم والحمد للهِ ربّ العالمين .

* صدر للمؤلّف *

1 ــ ضـرب الأمثـال في القـرآن أهدافه التربويّة وآثاره .

2 ـ وجوب وحدة المسلمين .

3 ـ رسالة المعلّم وآداب العـالم والمتعلّم .

4 ــ اعـرف نبيّـك محمّـداً ﷺ يـا بنيّ .!

5 ـــ ومضـات من هـدي النـبيّ الخاتم ﷺ .

6 ــ البيّنـات في تفسـير سـورة الحجرات .

7 ـــ المنهج القـــويم للداعيـــة الحكيم .

8 ــ مشـاهد الأتقيـاء في الصـبر على الابتلاء .

9 ـ رسالتان في التربية .

10 ـ صــور وعــبر من لطــائف القدر . المجموعة الأولى .

11 ـ صــور وعــبر من عجــائب القدر . المجموعة الثانية .

12 ـ حديث القلب .

13 ـــ النصــائح الذهبيّــة لتربيــة الأولاد ورعايتهم .

14 ــ قبســات من نــور النبــوّة لصاحبي الفضـيلة : الشـيخ أحمـد عـزّ الدين البيانوني ، والشيخ عبـد الفتّـاح أبو غدّة رحمهما الله تعالى . بعناية د. عبـد المجيـد البيـانوني ، وفي ختامـه رسـالة : " ومضـات من هـدي النـبيّ الخاتم ▯ " .

15 ـ تــذكرة العابــد بحقـــوق المساجد .

16 ـ أســاليب تربويّــة ومفــاهيم دعويّة من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني .

17ـ ركائز دعويّة من هدي النبيّ في العلاقات الاجتماعيّة .

18 ـ القـول المـبين في تفسـير سورة : " يس " .

19 ــ لمحـات من حيـاة الشـيخ أحمـد عـزّ الـدين البيـانوني وتعريـف بمؤلّفاته . دار القلم

20 ـ مواقف تربويّــة من هــدي النبيّ مع الأطفال .

21 ــــ خمس عشــــرة مهــــارة تجعلك مربّياً متميّزاً .

22 ـ خطوة خطوة نحـو التربيـة الناجحة .

23 ــ معـالم تربويّـة في حيـاة السلف .

24 ــ ثلاثـون سـبباً تمنعـك من الطلاق .!

25 ــ إنّهـا الأنـثى ! رؤى نقديّـة لدعوى التمييز ضدّ المرأة .

بأبي أنت وأمّي يا رسول الله

سبحان من بعثك بالحنيفيّة السمحة ، وحباك الخلق العظيم
وأرسلك رحمة للعالمين ، بشيراً ونذيراً ، بين يدي الساعة ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وفتح بك أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً ، ورفع ذكرك في العالمين ، وجعلك خاتم النبيّين ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وأيّدك بنصره وبالمؤمنين وأعطاك فأرضاك ، وجعل شانئك هو

الأبتر إلى يوم الدين صلّى الله عليك
وعلى آل بيتك الأطهار
وصحبك الأبرار ، وسلّم وبارك